الغدوُّ على العمل والرواح إلى الدار، والأوقات ينفقها مع أبويه، ثم الانحياز إلى غرفته والانقطاع إلى كتبه يعكف عليها حتى يتقدم الليل.

وكان في أثناء ذلك ربما دعاني إلى غرفته وأخذ يتحدث إلي ويسمع مني، وكانت المدينة وشئون أهلها موضوع حديثنا في كثير من الأحيان، كما كانت القاهرة وشئونها موضوع حديثنا أحيانًا أخرى.

كان يتحدث أو يسمع جالسًا إلى مكتبه، وكنت أتحدث أو أسمع واقفة غير بعيدة من مكتبه، وما أكثر ما دعاني إلى الجلوس وما أشد ما كنت أتمنى الجلوس! ولكني كنت أعتذر باسمة؛ فما ينبغي لمثلي أن تجلس إلى مثله وإنما حَسْبُ مثلي من مثله الوقوف بين يديه والتحدث إليه والاستماع له، وهذا كثير.

ألم تكن غريبة هذه الصداقة بيني وبين هذا الشاب على ما كان بيننا من الائتلاف والاختلاف؟ أكانت صداقة خالصة أم كان وراءها أكثر من الود الذي يكون بين الأصدقاء؟! أما أنا فقد كنت أجد وراء هذه الصداقة حبًّا ثائرًا أكتمه على ما كان يكلفني كتمانه من الجهد ويحملني من المشقة والعناء، وأما هو فقد كتم أمره أسابيع وشهورًا حتى خدعني أو كاد يخدعني عن نفسه، ولكنه ألقى النقاب ذات مساء فغيَّر من أمرنا كل شيء، ألقاه في غير جهد وفي غير تكلف، لم يضطرب له صوته، ولم يظهر على وجهه أثر العواطف المضطربة أو القلب الذي تضطرم فيه نار الحب، إنما تحدث إليَّ في هذا الأمر كما كان يتحدث إلي في أمر المدينة وفي أمر القاهرة بصوت لا ارتفاع فيه ولا انخفاض ولا اعوجاج فيه ولا التواء!

قال: ألا ترين أن الأمر بيننا قد آن له أن ينتهي إلى غايته ويبلغ مداه؟ قلت: وما ذاك؟ قال: هذا الحب الذي اختصمنا فيه وقتًا طويلًا وسكتنا عنه وقتًا طويلًا، ولكنه لم يسكت عنا، فما أظنه قد أمهلك يومًا كما أنه لم يمهلني ساعة، أما ينبغي أن تنتهي هذه الحياة الغامضة إلى ما يجب لها من الصراحة والوضوح؟ وقد سمعت منه ولكني لم أردَّ عليه جوابًا.

فلما طال عليه صمتي استأنف حديثه في صوت لا يزال سواء، فقال: إنك تفهمين عني اليوم ما أريد، كما فهمت عني من قبل ما كنت أريد. قلت مبتسمة: بل إني لم أفهم عنك شيئًا. قال ضاحكًا: بل تفهمين أني كنت أريدك على الإثم، وإني الآن إنما أريدك على الزواج.

واحتجت إلى أن أعتمد على كرسي كان مني غير بعيد، فإن فكرة الزواج لم تخطر لي قط، وما كان ينبغي أن تخطر لي؛ فقد أقدمت على كثير من خطير الأمر وتصورت في